منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الدار للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5175) السنة التاسعة عشرة - الاربعاء (27) نيسان 2022

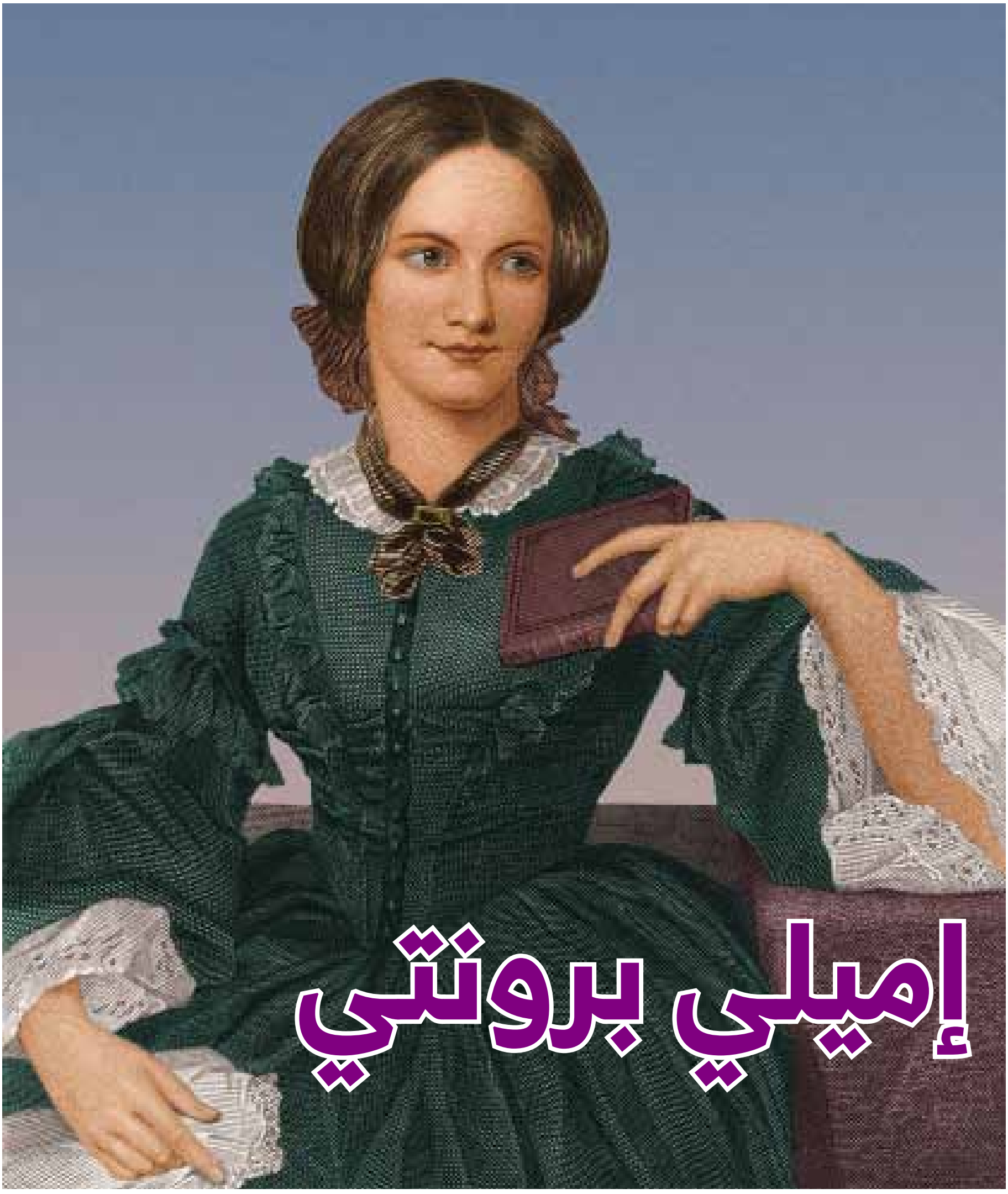

إميلي برونتي

شرق وغرب

«أروع قصة حب" في تاريخ الأدب الإنكليزي لا تزال مثيرة للجدل

هيفزيبا أندرسون

ابتكرت الكاتبة الشهيرة إميلي برونتي - التي ولدت قبل مئتي عام - شخصيةً يعتبر الكثيرون أنها تجسد البطل الرومانسي على الوجه الأمثل، بينما تبدو لآخرين مصدراً للخطر والتهديد، كما تقول هافيزباه أندرسون في سطورها التالية.

تتصف شخصية "هيثكليف" التي ابتكرتها الكاتبة الشهيرة، إميلي برونتي، بسمات يراها البعض كفيلةً بأن يقع القراء في حبها دون تحفظ، فقد كانت غير قابلة للترويض، وتغلب عليها سيماء الحزن والاكتئاب، ومُعذّبةً بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وبالنسبة لكثير من هؤلاء القراء، تشكل هذه الشخصية تجسيداً قوياً وربما فظاً للجاذبية البايرونية، نسبةً للسياسي والشاعر البريطاني اللورد بايرون، وكذلك لحركة أدبية تحمل اسم "العاصفة والاندفاع"، ظهرت في أوروبا أواخر القرن الثامن عشر.

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فـ"هيثكليف" لا يجسد تلك الصورة النمطية عن البطل الرومانسي فحسب، بل إنه يمثل تجسيداً حياً لشخصية أنقذتْ مما كانت تعاني منه. فهو طفلٌ منبوذٌ عانى من إهانات لا نهاية لها خلال نشأته وحتى وصوله إلى مرحلة الشباب والرجولة، ولم يكن يحتاج سوى حب امرأة صالحة لتُضفي السكينة على روحه القلقة المضطربة. كما عانى "هيثكليف" من إساءة الفهم ممن حوله، وكان ذا شخصية عميقة ومعقدة، وبحاجة ماسة إلى شخص يفهمه بحق.

والحب بالنسبة لهذه الشخصيةً ذو طابع متطرف وعدمي ومُسبب للإدمان، فهو يتلخص في الانصهار والاندماج مع شريكه الآخر فيه بإلحاح وعجلة من يرى ألا شيء آخر يهم. ودعونا لا ننسى هنا الصفات الشكلية التي أعطتها الكاتبة لتلك الشخصية، التي وصفت صاحبها بأنه وسيمٌ وطويل القامة وذو بشرة داكنة.

وقد تعززت جاذبية هذه الشخصية بما رُوي عنها من أن صاحبها يمارس الرياضة، وأن عينيه مشتعلتان بفعل ما يتقد فيهما من "نيران سوداء".

ففي الآونة الأخيرة، أعادت سامنثا إليس المعنية بأدب إميلي برونتي وأعمالها، التذكير بأحد العناصر المرتبطة بهذا الأمر، من خلال مقال كتبته بعنوان "كيف دمر هيثكليف حياتي العاطفية".

وفي المقال، قالت إليس - التي تصف نفسها بأنها "تتعافى من إدمان هيثكليف" - إن هذه الشخصية كانت "بوابتها إلى عالم التعلق والهوس المرضي بشخصيات روائية أخرى"، فبعده جاء الهوس بشخصيات مثل "ريت بَتلر" و"روبرت كامبل-بلاك" و"سبايك" - وهي شخصيةٌ ظهرت في المسلسل التليفزيوني "بافي قاتلة مصاص الدماء"، وكذلك "توماس كروموِيل"، كما رسمت ملامح شخصيته الكاتبة هيلاري مانتيل.

وأشارت إليس إلى أن هذه الشخصيات الأدبية ظهرت في حياتها بالتزامن مع أخرى حقيقية لشبان فاسدين للأسف، قائلةً: "عندما وصلت إلى مرحلة المراهقة، كنت أطارد رجالاً سيئين. وفي عشرينياتي من العمر، واعدت رجالاً لم يكونوا صادقين أو يتسمون باللطف معي على الدوام».

على أي حال، الأدب هو المعلم الأفضل على الإطلاق للبشر، خاصةً إذا كنا نتحدث عن أعمال رفيعة المستوى منه، إذ يُرسخ رسائله في عقولنا وأفئدتنا مُتدثرةً بطريقة فذة في القص ومقدرة لا يمكن محو أثرها على التصوير.

فنحن نستوعب الحقائق التي ترد في الروايات المتميزة الرائعة بشكل لا شعوري تقريباً، وهو ما يجعل من العسير للغاية انتزاعها منّا داخلنا فيما بعد. وما من شك بالمناسبة في أن "مرتفعات ويذرينغ"، تلك الرواية التي يعتبرها عشاقا أشبه بوثنٍ يُعبد - تستحق مكانتها كعملٍ أدبي من الطراز الأول.

ومن بين الأسباب التي تجعل شخصية "هيثكليف" مثيرة للاهتمام على نحو أكبر، حقيقة أنها أطلقت في سماء أحلام يقظتنا الرومانسية الجماعية، على يد امرأة يُعتقد أنه لم يكن لها حبيبٌ قط؛ سيدةٌ وُلدتْ منذ 200 عام، ووُصفتْ بأساليب مختلفة على أنها عانس تكره البشر وذات شخصية روحية هشة.

اللافت أن التزام إميلي الصارم بإضفاء الخصوصية على حياتها القصيرة التي انتهت وهي في سن الثلاثين ليس أكثر، وغياب أي توثيق لما جرى خلالها، أذكى التكهنات حولها، إلى حد أن تشخيص أسباب وفاتها جعل هذه الأسباب تشمل كل شيء تقريباً، بدءاً من الخوف المرضي وفقدان الشهية للطعام وصولاً إلى الإصابة بمتلازمة أسبرجر، وهي أحد الاضطرابات التي يعاني منها المصابون بالتوحد.

فقد رفض بعض الباحثين ببساطة تصديق أن تكون المشاعر المشبوبة التي تنضح بها صفحات "مرتفعات ويذرينغ" وليدةً للخيال وحده. وأشار هؤلاء إلى أنه كان لـ"إميلي" اهتماماتٌ عاطفيةٌ، شملت شقيقها برانويل وحتى شقيقتها آن.

ولكن حتى إن استبعدت التكهنات الأكثر سخفاً من نوعها في هذا الإطار، فستظل إميلي برونتي شخصيةً متفردة، جاهزة لإشهار أسلحتها دائما، وليست قطعاً من بين تلك الشخصيات التي تصلح موضوعاً للثرثرة واللغو.

وهنا يمكن الإشارة إلى أن الجانب الأكبر من أسطورة "إميلي المجنونة" يُعزى إلى حقيقة أنها وُلدتْ ببساطة في الحقبة الخطأ. فكما قالت الباحثة كلير أوكالاهان في كتاب جديد بعنوان "إعادة تقييم إميلي برونتي" يسرد السيرة الذاتية لهذه الكاتبة الشهيرة: "كانت إميلي روحاً مستقلة، في زمن لم تكن فيه استقلالية المرأة موضع ترحيب من الوجهة الثقافية».

إذن فكيف يمكن أن تنسجم شخصية "هيثكليف" مع هذا السياق؟ هي في نظر الكثيرين تُجسد البطل الرومانسي على الوجه الأمثل، وتظهر بشكل منتظم ضمن نتائج استطلاعات الرأي التي يُطلب من المشاركين فيها تحديد الشخصية الأدبية الأكثر رومانسية على مر العصور.

لكن آخرين يرونها في المقابل أقل سحراً بكثير. وفي مقابلة مع صحيفة "نيويورك تايمز" نُشرتْ عام 2015، أسرت الروائية آن تايلر بأنها وصلت إلى مرحلة الرشد دون أن تقرأ تقريباً "مرتفعات ويذرينغ". لكنها اكتشفت آنذاك أن الكثير من صديقاتها يعتبرن "هيثكليف" أكثر بطل رومانسي مُفضل لديهن على الإطلاق. وأشارت تايلر إلى أنها قرأت بعد ذلك "نحو ثلاثة أرباع الرواية -

وأنا في هذه المرحلة الراشدة من العمر - لتَتَوَلّدَ لديّ على الفور مخاوف جديةٌ بشأن الصحة العقلية لصديقاتي».

النقطة الحاسمة هنا تتمثل في أن تايلر قرأت الرواية وهي في طور النضج، بخلاف غالبيتنا الذين طالعوها في سن المراهقة، أي عندما نكون في مرحلة عمرية نتأثر فيها بشكل جامح بكل ما يمر بنا، ونشعر خلالها بأن افتتاننا المكتوم بشخص ما في سن بطل تلك الرواية، هو قصة الحب الأعظم على الإطلاق، على ما يبدو.

علاوةً على ذلك، فإن الرغبة المتقدة التي يعبر عنها "هيثكليف" تتجاوز مجرد الهوس بأشواط، وهو أمرٌ فعالٌ ومهمٌ بالنسبة للمراهقات اللواتي ينزعن إلى تضخيم أهمية ذواتهن ويتعطشن لمن يُشبع غرورهن.

فضلاً عن ذلك، تجدر هنا ملاحظة أنه برغم المبالغات المكثفة التي تحيط بالأمر كله، فإن هناك ما يوحي بالأمن والطمأنينة في هذه الشخصية والمشاعر التي تتدفق منها، نظراً لأن ما تُعبرُ عنه يُغربل دائماً على يد راوٍ أو اثنين.

ففي مرحلة ما، نقرأ رواية شخصية إيزابيلا للأحداث كما قيلت لـ"نيللي" بحسب ما رُويت لـ"لوكوود". كما أن علينا هنا تذكر أن قصة الحب التي تتضمنها الرواية لا تكتمل قط. فالأمر كله مُشبعٌ بكل تفاصيل وملامح وسمات فترة المراهقة، ما يجعل من المنطقي تماماً القول إن عملاً مثل هذا يجدر به أن تكون الرواية المفضلة لـ"بيلا" و"إدوارد" بطليّ سلسلة "توايلايت" (الغسق).

إلى جانب ذلك، هناك مسؤوليةٌ كبيرةٌ ملقاةٌ في هذا الشأن على عاتق المعالجات السينمائية للرواية أيضاً. فشخصية "هيثكليف" جُسدتْ على يد ممثلين مثل "لورانس أوليفييه" و"رالف فاينس"، وأيضاً "كليف ريتشارد».

وتتعامل معظم هذه المعالجات مع النصف الأول فقط من الرواية، مُتفاديةً أجواء الكآبة الصريحة التي تُخيم على الفصول اللاحقة، والتي يمكن أن تشعرك بـ"رهاب الاحتجاز" من فرط تصوير الكاتبة للشخصيات البغيضة التي تُكِنُ الشر والبغضاء بكل معنى الكلمة لبعضها البعض.

هل يتذكر أحد رئيس الوزراء البريطاني الأسبق غوردون براون عندما شبّه نفسه بـ"هيثكليف"؟ افتُرِضَ وقتذاك أنه يعني "هيثكليف" كما ظهر على شاشة السينما، خاصةً عندما خفف هذه العبارة بالقول: "ربما (أكون) هيثكليف وهو في سن أكبر، وأكثر حكمة". في الرواية، نلتقي بالفعل بـ"هيثكليف" الأكبر سناً، ولكننا نجد شخصيته وقد صارت صعبة المراس على نحو أكبر، إذ نراه مالك أراض مستبداً غاشماً، تلتهمه رغبته في الانتقام.

ومن هذا المنطلق فإنه يمكن للمرء أن يرى "هيثكليف" وقد صار أقل جاذبية إجمالاً، إذا عاد لقراءة الرواية وهو أكثر عمراً ونضجاً وحكمةً، ومُتسلحاً كذلك بالقطع ببعض الخبرة التي اكتسبها من معرفة أشخاص يمكن وصفهم - بكل الأدب الممكن - بأنهم أوغاد.

فـ"هيثكليف" يبدو - في الرواية - فظاً وعابساً وعنيفاً وبذيئاً ومُعدماً. نراه خلال الأحداث، وهو يُكشرُ ويتذمر ويصدر صوتاً كالنخير من باب السخرية. وهو في واقع الأمر ليس بذاك الرجل الذي يمكن أن تُكمل امرأة حياتها معه. فحتى أن برونتي التي كانت دوماً على استعداد لخداع شقيقتها، وصفت علاقة الحب التي كان "هيثكليف" طرفاً فيها في العمل بأنها "عاطفةٌ منحرفة، وانحراف عاطفيٌ».

ورغم أن نشأة "هيثكليف" و"كاثي" كشقيقين قد جعلت علاقة الوله القائمة بينهما مُشوبة بقدر مُثير للغثيان من "سفاح المحارم"، فإن غياب هذا العنصر لم يكن ليحول دون أن يرى القراء - وبسهولة - أن ما يربط بينهما هو علاقة تعلق مرضي مشترك، ذات سمت استحواذي ومدمر، أي أنها بالاختصار "علاقةٌ سامةٌ».

لذا لعل من الأفضل ألا نعتبر "مرتفعات ويذرينغ" عملاً رومانسياً على الإطلاق. فكما يقول الناقد الأدبي تيري إيغلتون، الذي وضع نظرية تتعلق بالأعمال الروائية التي يصل التعلق بها إلى حد العبادة، فإن علاقة "هيثكليف" و"كاثي" لا يمكن وصفها بأنها علاقة "سوى بشق الأنفس».

والسبب في ذلك حسبما يرى إيغلتون، أن هناك - بلا شك - قدراً من الغرابة والاختلاف يكتنف الصلة القائمة بين الاثنين. فالاقتباسان الشهيران لـ"كاثي" اللتان تقول فيهما "أنا هيثكليف!"، و"هو يشبهني أكثر مما أشبه نفسي" يشيران - بالقطع - ضمناً إلى أمرٍ ما مميتٌ ومهلك.

وفي نهاية المطاف، فمهما كان رأيك في "هيثكليف"، فإنه من المذهل أن تفكر في أنه كان وليد مُخيلة امرأة شابة ذات سمات مُعقدة؛ عاشت حياة شبه منعزلة ووُلدتْ في عام 1818، بل ورسمت ملامح شخصيتها الروائية هذه - على الأرجح - دون أن تكون لديها أي خبرة بالمشاعر والعواطف الحسية.

ولعل كونها قد قامت بذلك بالفعل يحدو بنا للتفكير من جديد في مسألة تناول الشبق والإثارة الجنسية في الأدب. فبرغم أجواء الخصوصية التي تكتنف حياة إميلي برونتي؛ نعلم على وجه اليقين من أشعارها وأعمالها النثرية أنها كانت تستمد الشعور بالبهجة الغامرة والسعادة المفعمة بالحيوية من الطبيعة الغناء، وهو ما يثبت أن المرء ليس بحاجة إلى ممارسة الجنس أو الوقوع في الحب حتى، لكي يشعر بهذا الفيض الهادر من العواطف الناجم عنهما.

لكن ذلك لا ينفي بالطبع أنك ستبقى ربما بحاجة إلى التفكير ملياً، قبل أن تعتبر إميلي برونتي وآراءها مصدراً للنصح والمشورة بشأن أمورك العاطفية.

عن "بي بي سي"

مرتفعات وذرينغ: قراءةٌ في الجمالِ الخَشِنْ

هند عزت

لم تكتب "إميلي برونتي" طيلةَ حياتها غيرَ "مرتفعات وذرينج"، وأصبحت الرواية واحدة من أعمدة الأدب الإنجليزيِّ؛ لخوضها في أعماقِ النفسِ البشريَّة، من دون إسهابٍ في المثاليات؛ كالعديدِ من الروايات التي تصنعُ من أبطالها واجهة للخير فقط، ورغم ذلك تركت في نفس كلٍّ من قرأها غصةً مريرة، وشجناً يلازمانه كلما سمع، أو رأى غلاف رواية "مرتفعات وذرينج"، كما تعدُّ إحدى أهم الروايات العالمية؛ لاحتوائها على أعمق المشاعر الأنسانية وأكثرها تعقيداً، فلا تتخيل عزيزي القارئ أنك تستطيع تمييز الخير أو الشر بسهولة عندما تتعامل مع شخصيات الرواية، فهناك أنت ضائعٌ بين محبة الأبطال أو كراهيتهم، حتى "the villain" - شرير الرواية - تجدُّ نفسك دائماً ما بين الحنق، أو الشفقة عليه!

تقعُ أحداثُ الروايَة في الريف تحديداً في "مرتفعات وذرينج"، حيث تقطن فيها عائلتان فقط وهما عائلة "ايرنشو" و عائلة "لينتون"، وتبدأ القصة بتبني السيد "ايرنشو" لطفل مشرد وجده أثناء رحلة عمل وحيداً بالشارع ومنحه اسم "هيثكليف"، يشابهَ اسمَ طفل العائلة المتوفى، وتبدأ الصراعات بين أطفال السيد "ايرنشو" وهما "هاندلي" و "كاثرين" أو "كاتي" - كما أعتادوا أن يلقبوها- و بين الطفل الجديد "هيثكليف"؛ حتى تنضم "كاتي" إلى صفه؛ لتكونَ بدايةً لقصة حب جامحة، أطاحت بكل من أعترض سبيلهم، مهما كانت قرابته، فكانت شديدة الجمال والخشونة في الوقت ذاته، ومع وفاة السيد و السيدة "ايرنشو" زاد اضطهاد "هندلي" لـ "هيثكليف"؛ فكان يعتبره لصاً سلب قلبَ و حبَّ والده منه، فكان يحط من قدره ويمنعه من التعلم مع "كاتي"، وتلقى "هيثكليف" كل هذا بصبر، ولطالما كانت "كاتي" معه، تلقنه ما تتعلم، حتى توطدت علاقة "كاتي" مع "ال لينتون" بالصدفة، ومن وقتها انقلبت الأحداث بتغيير علاقة "هيثكليف" و "كاتي"؛ التي وصلت إلى حد قبول "كاتي" الزواج من "ادجار لينتون" وعندما علم "هيثكليف" بهذا؛ خرج من المزرعة، ولم يعد إليها إلا بعد سنوات.

ومن ثمَّ تم زواج "كاتي" و "ادجار" في هدوء، وعاشوا في مزرعة "ال لينتون"، ولكن انقلب الهدوء على عقبيه إبان عودة "هيثكليف" ورغبته في رؤية "كاتي"، والانتقام من "هندلي" و "ادجار" و بدأ "هيثكليف" في تحقيق انتقامه عندما سلبَ "هندلي" أمواله، وهرب مع "ايزابيلا لينتون" بعيداً عن المزرعة، وتزوجها رغم أنف "ادجار"، وبمرض "كاتي" و موتها دخل "هيثكليف" في نوبة اكتئاب؛ فكان يعيش على أمل اللحاق بها بعدما حقق أهدافه، وفقد الانتقام لذته فكان مجتمعاً تحت سقف واحد في نهاية المطاف مع "هيرتون" ابن "هندلي" الراحل، و"كاثرين لينتون" ابنة "كاتي ايرنشو" الراحلة و "ادجار"، ولكنه لم يقوى على القضاء عليهم والتنكيل بهم كما تمنى، وبالنهاية لحق بها كما تمنى، وانتهت "مرتفعات وذرينج" بخطوبة "كاثرين ادجار" من "هيرتون ايرنشو" لتعود المرتفعاتَ إلى سابق عهدها من السلام.

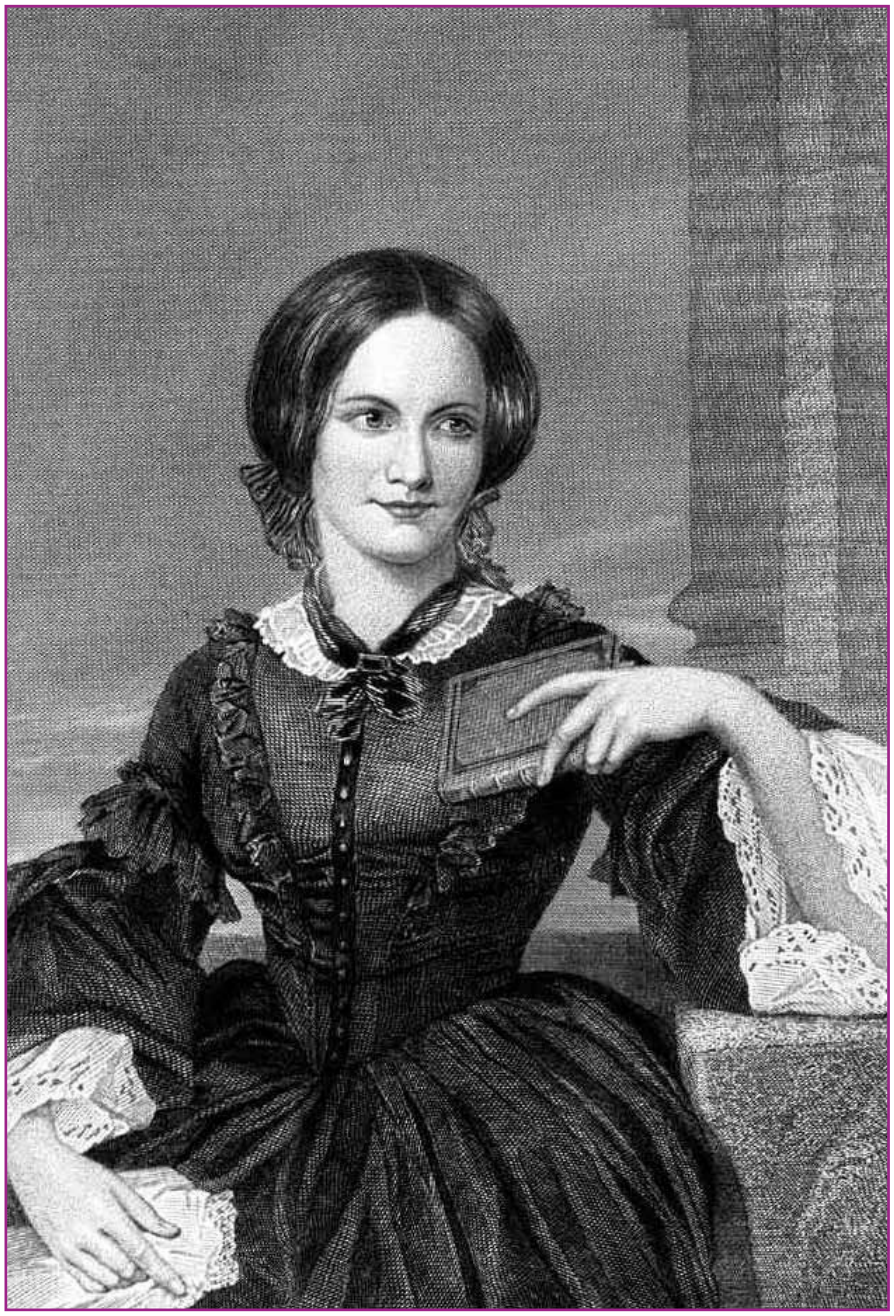

"إنها أعلى منهم مقاماً، و من أي أحد آخر على الأرض، أليس كذلك؟"، لطالما تساءلت عمَّا يعنيه "هيثكليف" عندما وصف "كاثرين" بتلقائية مفرطة للمربية "نيللي"، هل نستطيع وصف "هيثكليف" بالنرجسية بهذه البساطة؟ كلما تعمق القارئ في أحداث الرواية يجد صعوبة في تحليل مشاعر شخصية "هيثكليف"، فهو مزيجٌ غريب بين المحب المتفاني، والمنتقم الذي لا يلين قلبه لأحد غير "كاتي"، وكأن "إميلي برونتي" تصفه هو بذاته عندما أسهبت في وصف طبيعة المرتفعات، وأراضي يوركشاير البور.

على غير المعتاد في تحليل الرواية تثيرني دائما شخصية "كاثرين ايرنشو" أو "كاتي" فأسعى في كل مرة أقرأ بها الرواية إلى فهم أبعاد شخصيتها، فبالرغم من طغيان شخصية "هيثكليف" على باقي الأبطال إلا أن "كاثرين" تستحق أن تُقرأ قراءة منفردة، فهي لم تكن الرفيقة المثالية بأي حال من الأحوال، حتى وإن شاب كلامي بعض القسوة.

في طفولة "كاتي" و "هيثكليف" كانا شديدي الالتصاق لدرجة أثارت أعصاب كل من في منزل "ايرنشو"، فكان من الغريب استطاعتها المكوث في منزل "لنتون" طيلة خمسة أسابيع من دون رفيقها الذي كان أقصى عقاب يوقّع عليها بالأبتعاد عنه! و عندما عادت إلى المزرعة تعجبت من مظهر رفيقها بطريقة وقحة أمام "هندلي"، وهي أكثر الناس إدراكا لكره "هندلي" له، ورغبتها الشديدة في إيذائه!

و لأول مرة يُدرك "هيثكليف" أن وسامته الخشنة لن تصمد أمام عيون "ال لينتون" الزرقاء وبشرتهم الفاتحة، كيف لكاتي أن تتنمر على رفيق روحها، ونصفها الأخر وهي لاتزال تتمتع ببراءة الطفولة؟ وحتى عندما كانت "كاتي" لاتزال رفيقة مخلصة على حد قول "نيللي" المربية، ارتدت أجمل فساتينها وانتظرت "ادجار" و "ايزابيلا"، ووبخت "هيثكليف" و اتهمته بأنه لا يجيد التحدث وتسليتها وأن صُحبته ليست صُحبة على الأطلاق.

وفي نفس اليوم أخبرت "نيللي" أنها توافق على الزواج من "ادجار لنتون" لأنه حسن المظهر، وحلو المعشر، وسيكون ثرياً على حد وصفها، فأرادت أن تكون أعظم سيدة في المنطقة رغم إقرارها لنفسها ولنيللي أنها مخطئة بترك رفيق دربها "هيثكليف".

كانت هذه نقطة النهاية إلى "هيثكليف" الذي سمع عن ما أفصحت به "كاتي" و بأن زواجها به سوف يحط من قدرها؛ فخرج عندئذ ولم يعد فكيف له أن يتحمل الانفصال عن "كاتي" التي بدونها؛ سيصبح بلا صديق في العالم على الأطلاق.

لم يشفع لها من وجهة نظري مرضها؛ فشعرتُ أن الإحساس بالذنب الذي اعتراها امتزج مع الدهشة، فكبرياؤها لم يتحمل فكرة ترك "هيثكليف" لها، فكيف لمن اعتادت خضوعه وتحمله لرغابتها، أن يتركها ببساطة هكذا بدون وداع!

و كم أشفقت على "هيثكليف" عندما عاد وكاد يحترق لرؤيتها مرة أخرى، وتعجبت من قوة مشاعره تجاه رفيقته الخائنة ولم أتعجب سلوكها تجاه زوجها الذي تحمل معها مرضها وجميع تقلباتها العنيفة، وتحمل ما ألم به من تلك العلاقة في صبر ووفاء مطلق.

حتى "ايزابيلا" لم تنجو من الأذى عندما سارعت "كاتي" بإخبار "هيثكليف" أنها مغرمة به بادعاء براءة مريب وهي تعلم رغبة "هيثكليف" في الانتقام من "ادجار"؛ فعاقبت المسكينة التي تجرأت على حب ما هو ملك لـ "كاتي" التي لا تقبل نزاعا على ممتلاكتها وبالأخص قلب "هيثكليف".

لم يكن "هيثكليف" وحده الراغب في الانتقام في هذه الرواية، فدائما ما شعرت برغبة "كاثرين" في الانتقام من الجميع لا لشيء إلا لأنانيتها المفرطة، والتي تسببت في معاناة كل من حولها وكأن الكون يدور لإرضاء رغباتها وكلما شعرت بمعارضة لإحدى طلباتها الحمقاء – كرغبتها على سبيل المثال في بقاء حبيبها السابق في بيت زوجها كلما رغبت في رؤيته- عادت إليها النوبات العنيفة التي تُركع الجميع خوفا علي صحتها!

ولم ترغب في أن تلقي اللوم علي نفسها في أي شيء، فعندما واجهتها "نيللي" بأنها السبب في هروب "هيثكليف" قاطعتها، بل قامت بلوم "ايزابيلا" على المعركة التي دارت بين "هيثكليف" و "ادجار" و عزّت ايضاً السبب إلى غيرة "ادجار" وأنانيته في إسقاط مباشر لكل ما قامت به، وقررت عقاب الجميع وكسر قلوبهم؛ عن طريق كسر قلبها على حد قولها إلى "نيللي" التي كانت أكثر شخص يعي شخصية "كاثرين" الأنانية فلم تمتثل للكثير من رغباتها الحمقاء، وحاولت حماية الجميع قدر إستطاعتها.

للأسف لم تكن نهاية "كاتي" نهاية لمتاعب الجميع فظل "هيثكليف" في حالة من الجنون استمرت حتى لحق بها وانتقم من "هندلي" و "ايزابيلا" وكل من له صلة بـ "كاثرين ايرنشو" حتى ابنتها لم يشفع لها عيون "كاتي" التي ورثتها وكانت تذكره بها في كل لحظة.

أما "ادجار" انتابه الحزن حتى أخر يوم و في عمره ودفع ثمن اخلاصه لزوجته كما تحمل أيضا انتقام "هيثكليف" من أخته "ايزابيلا" في صبر، وضرب مثلاً رائعاً للحب والإيثار، فكلما تأملت شخصيته وجدت أنه كان شخصاً متصالحاً مع نفسه، ويتسم بالوضوح عكس باقي شخصيات الرواية تقريباً.

ليس لصلة الدم علاقة بالطبائع فالأمر الذي يستدعي الإعجاب هو صمود "كاثرين" ابنه "كاتي" و "ادجار" -التي تم تسميتها تيمنا بأمها التي لاقت حتفها أثناء ولادتها – في وجه المصاعب، كأنها لم ترث من أمها سوى عينيها وباقي الخصال الحميدة تلقتها من والدها و"نيللي" التي قامت برعايتها منذ ولادتها، وكذلك "هيرتون" ابن "هندلي" الذي نال الانتقام من "هيثكليف" نيابة عن أبيه بعد وفاته، فلم يؤثر به كل ما تعمد "هيثكليف" أن يقوم به لإيذائه، وجعله عبداً خاصاً وفيّاً له، وكأنها إرادة السماء بأن يرى "هيثكليف" كل ما سعى لأجله يتحول إلى شيء بلا معنى على الاطلاق.

فكان المشهد الذي جمع بين "هيرتون" و"كاتي" عَذباً و رائعاً فهو كطبيعة "مرتفعات وذرينج"؛ عندما تكون في أحسن أحوالها الجوية، فرائحة الزهور الحلوة التي عبّقت الجو مع صوت "كاتي" العذب كرنين الجرس الفضي، له وقع مريح في نفس القارئ الذي عاش معاناة شاقة طيلة الرواية و كأن "إميلي برونتي" تطيب جروح القارئ في النهاية برفيقين يعدان غاية في البراءة و الوفاء.

هذا الدرس الذي تلقنه لنا "إميلي" بالطريقة الصعبة بعد أن عزفت سيمفونية من الحزن العذب المحبب للنفس رغم كل شيء، ففي عالم "مرتفعات وذرينج" لا تمل من القراءة، فكل المشاعر عميقة مختلطة باللون الرمادي وتترك لقلبك وحده الفصل، فلتطب روحك "إميل".

عن المصري اليوم

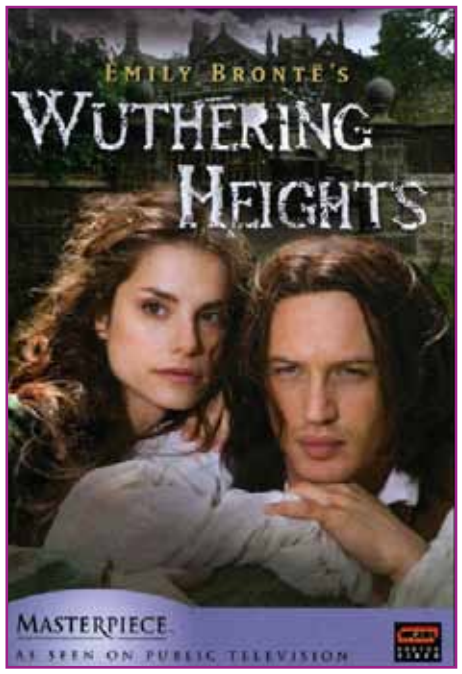

"مرتفعات ويذرنغ" رواية واحدة وأفلام كثيرة

رحمن خضير عباس

تبدأ الرواية بالحديث عن شخص اسمه لوكوود، وهو ساكن جديد استأجر بيتا ريفيا قريبا من قصر مرتفعات ويذرنغ، وحينما كان يتسكع قرب القصر هبّت عاصفة ثلجية جعلته يلجأ إلى قصر هيثكليف، لأنه لا يستطيع العودة إلى بيته، ورغم جلافة استقبال هيثكليف له، ولكنه وافق على مضض أن يمنح الضيف غرفة في القصر ليقضي ليلة العاصفة. وفي الليل يسمع صوتا نسائيا مفجوعا ويرى امرأة شابة تستحلفه أن يفتح الباب. وتتشبث بيديه عبر زجاج النافذة وحينما يهرع فزعا، تحكي له خادمة البيت نيلي بأن هذه الأمرأة ماهي إلا شبح كاثرين التي ماتت قبل عشرين عاما، وتبدأ بسرد قصة القصر وأسراره على هذا الرجل الغريب، وهكذا فإن الكاتبة تلجأ إلى تنوع مستوى السرد على لسان المربية نيلي، وعلى لسان لوكوود نفسه.

والقصة تبدأ من خلال سيد قصر مرتفعات ويذرنغ ايرنشو والذي سافر إلى مدينة ليفربول، وقد وعد طفليه هنتلي وكاثرين بأن يجلب لهما هديتين، ولكنه بدلا من ذلك فقد جلب طفلا غجريا، أسمر اللون وجده متشردا في أزقة ليفربول، مما أثار حفيظة هنتلي الذي رفضه وتملكته الغيرة منه، بسبب تعاطف الأب مع الصغير، حيث رعاه ومنحه اسم هيثكليف، تيمنا بابنه البكر الذي مات قبل سنوات. وبعد ذلك يسافر هنتلي الابن الكبير للدراسة، وفي غيابه يموت الأب، فيعود هنتلي ليعتبر نفسه سيدا للبيت، ويعامل هيثكليف ليس كأخ بالتبني وإنما كخادم، ويمارس معه كل أنواع الإذلال والتعذيب الجسدي والنفسي.

أما كاثرين فقد ترعرعت مع هيثيكليف، ونشأت بينهما أواصر من المحبة الطفولية، والتي تحولت بمرور الوقت إلى حب حقيقي. وفي إحدى مغامرات هيثيكلف وكاثرين الصبيانية، يتسللان إلى قصر جيرانهم السيد إدجار نيلتون، فتهاجمهما كلاب الحراسة، وتبقى كاثرين في قصر الجيران لإسعاف جرحها، مما جعل ادجار الشاب الوسيم، وهو الوريث لقصر نيلتون ينجذب إليها، ويطلب يدها للزواج، فتصارح كاثرين المربية إيلين بمشاعر الاعجاب المتبادل بينها وبين إدجار. وحينما استفسرت عن حبها الأول قالت لها كاثرين بأن "لا أحد يستطيع أن يتزوج هيثيكليف، إنه حيوان وحشي"، ولم تعلم أنّه كان يسترق السمع إلى كامل أقوالها. لذلك فقد غادر مرتفعات ويذرنغ إلى جهة مجهولة، وكادت كاثرين أن تُجن وهي تبحث عنه. وحينما استغربت نيلي من سلوكها المتناقض، صرخت كاثرين بلوعة "أنا لا أحب هيثكليف فحسب، وإنما هو أنا". وهذا التعبير يرتقي إلى الإتحاد الحقيقي، والذوبان في ذات المحبوب.

وبعد أنْ يئست كاثرين من عودته، تزوجت من إدجار وانتقلت إلى قصره. وبعد ثلاث سنوات يعود هيثكليف بشخصية الغني المنتصر، فقد كسب ثروة من سفره، وقد وجد هنتلي الذي أنفق ثروته في القمار والخمر، مما جعل هيثكليف يساوم هيندلي ويشتري منه القصر، ويحوّله إلى خادم، ثم أغوى ايزابيلا شقيقة إدجار، وطلب منها الزواج، لا حبا بها، بل ليمارس لعبة الانتقام من أخيها الذي تزوج حبيبته، وعاملها بقسوة كما يُعامل العبيد، فبقيت تعاني من جحيمه ومن الخجل من موقفها، لأن زواجها كان ضد رغبة أخيها إدجار.

أما كاثرين فكانت تعيش على حافة الحياة بين حبها الجنوني لهيثكليف وبين واجباتها الأخلاقية كزوجة لإدجار. لذلك فقد كانت تعاني من جنون الانفصام بين الغريزة وبين الواجب، ومرضت وهي حامل، وقد ماتت لحظة ولادتها لطفلتها الصغيرة التي سميت بكاثرين أيضا. أما هيثكليف فقد عاش معذبا بعد موتها وتحول إلى مسخ بشري، يعيش على وهم كاثرين.

«لقد فقد الانتقام لذته، أشعر أني أصارع أمواجا عاتية ولم يبق لي سوى مسافة قصيرة حتى أصل إلى الشاطئ... لقد بلغتُ جنتي ولا حاجة لي بجنة الآخرين».

وهذا يفسر سلوكه الفظ مع جميع من يلتقي بهم، لأن الخذلان في حبه قد تحول إلى حقد على كل شيء.

بعد غياب طويل تذهب المربية نيلي مع كاثي التي أصبح عمرها عشرين عاما، وما أن يراها هيثكليف حتى يحبسها ويجبرها على الزواج من ابنه، كي تعود أملاك قصر أبيها ادجار لينتون إليه. وهكذا تنتهي الرواية التي تحدثت عن ثلاثة أجيال، عاشت وماتت في هذه البيئة المعزولة وهم يواجهون أقدارهم.

لقد كتبت إميلي برونتي أعمق العواطف في هذه الرواية اليتيمة، مع أنها لا تمتلك تجربة في الحياة والحب، لكنّ رؤيتها الثاقبة تسللت إلى أعماق أبطالها، فوضعتهم تحت المجهر، وأظهرت من خلالهم صراعا حادا بين الحب والقسوة والحقد، وكأن هذه العواطف قد تحولت إلى زوابع تقتلعهم، وتجعلهم ضائعين في أفلاك مجهولة.

كان هيثكليف كالبركان الذي يرمي حمم الشر. فكيف يمكن للحب والكره، والوداعة والشراسة أن يجتمعا معا في شخص واحد؟ وكأنه مجموعة من المجسمات الحادة التي تتصارع في ما بينها. فقد تحمّل كل أنواع العذاب من أجل كاثرين، ولكنه في نفس الوقت كان مشحونا بكراهية من سواها.

أما كاثرين فلا تختلف عنه في تعقيد شخصيتها، فهي تهيم به إلى حد الجنون، وفي نفس الوقت ترى بأنه قذر وبدائي، وحينما تحتج المربية نيلي على تسرعها في زواج إدجار، تفسر كاثرين ذلك بشكل غريب ترد عليها بقلب مفجوع:

«زواجي بادجار هو الفرصة الوحيدة للحصول على هيثكليف بعيدا عن هيندلي، ثم نصبح أحرارا».

وحينما يعود بعد ثلاث سنين، تجده قد تبدل تماما في أناقته وثرائه وغموضه، ولكنها لم تكترث للتغيير، وإنما شعرت أن روحها التي تشظت قد عادت إليها، ولكنها من زاوية أخرى تعيش مع شخص في زواج لا علاقة له بالحب، لذلك تعرضت لأعنف صراع تعيشه امرأة، بين غريزة الحب البدائي وبين مؤسسة الزواج وقدسيتها، لذلك فقد ذوت كبرعم فقد ما يغدي نسغه من الماء، وماتت في لحظة الطلق وهي تتمخض لإنجاب طفلتها كاثرين.

أما شخصية هنديلي، فهي هشة حقودة، تقوده شهواته في الإدمان على الخمر والقمار إلى الحضيض، فيفقد المال والجاه والزوجة والأولاد، لأنه شخصية تافهة لم تستطع أن تواجه مصيرها بشجاعة.

لقد كتبت برونتي روايتها بلغة أقرب إلى الشعر، باحثة عن الكمال المستحيل.

منذ عشرينيات القرن الماضي والسينما تتهافت على التزود من معين هذه الرواية. وأول فيلم تعرض للرواية عام 1920 كان صامتا، وبعد عقدين تقريبا أي عام 1939 استطاع المخرج الأميركي وليم يلر أن يحول الرواية إلى فيلم حصل في وقتها على الأوسكار. وفي 1970 كانت السينما الملونة قد قدمت الرواية بثوب جديد من إخراج روبرت فبوست، الذي تناول الأجزاء الأولى من الرواية والتي تبدأ من خلال مراسم دفن كاثرين. وكان هيثكليف يراقب المشهد بحزن. وحينما غادر المشيعون ذهب إلى جثمانها ليحتضنه وينام إلى جانبه إلى الأبد. كما أكد الفيلم على البيئة الصخرية المعزولة، وقد أهمل الفيلم الكثير من التفاصيل، وتناول شغف عاطفة الحب، وقد أظهر ادجار بمظهر الرجل الهزيل الشخصية.

أما الفيلم الذي أخرجته أنريا أرنولد، فقد كانت لها رؤية أخرى، فقد جعلت من هيثكليف أسود البشرة، وذلك لأن ليفربول كان ميناءً للعبيد آنذاك. وقد ربطت ما بين عبودية المرأة وبين عبودية العرق، وكأن الروح المتوثبة والمعذبة لهثكليف ما هي إلا صدى لروح أميلي برونتي التي تبحث عن الانعتاق. وقد كان الإخراج في مستوى عال، رغم أنّ المخرجة لم توفق في رسم شخصية الأب إيرنشو، فقد أظهرته شابا قاسيا، على عكس الرواية التي أكدت طيبته، وتعاطفه مع هيثكليف، واعتبره ابنه بالتبني رغم اعتراضات هنتلي.

أما الفيلم الذي تم إخراجه في عام 1992 فقد جعل "مرتفعات ويذرنج" ذات بيئة قارسة البرد وثلجية، وقد تعاطف مع شخصية هيثكليف أكثر من إدجار. وقد رسم الأجواء التقليدية للطبقات الارستقراطية، في الرقص والموسيقى، وطبيعة الاكسسوار. أي أن المخرج استطاع أن يقبض على روح العصر ويكشف تناقضاته الصارخة، بين الثروة المتوارثة لبعض البشر، والتي تأتيهم من خلال ملعقة ذهبية، ولكنّ بعضهم لا يدركون قيمتها، لأنهم لم يدركوا متاعب الحياة، لذلك يتم التفريط بها، كما هو حال هندلي الذي كان سيدا للمرتفعات، ولكنه أصبح ضحية لرغباته الرخيصة في المقامرة والخمر فخسر حياته وأملاكه وانتهى مشردا. أما أدجار الذي ورث ثروة عائلة نيلتون، فتراه شخصية تقليدية لا تمتلك العمق الإنساني، فيعيش على فُتات العواطف، فهو يحب كاثرين مع علمه بجنون حبها لهثيكليف، وقد بقي أسيرا لشخصيته الضعيفة التي تتأرجح ما بين النبل والوضاعة.

جميع الأفلام طرحت رؤية جديدة عن الرواية، ولم تلتزم بها، لأن الرواية تُسهب في تسلسل الأحداث وتطورها، ولذلك كانت نهاية هيثكليف تختلف من فيلم إلى آخر، وكذلك نهاية هيندلي، وهذا شيء طبيعي لأن أي فيلم لا يريد أن يكون نسخة مكررة من الرواية، ومع أن ذلك يفقد الفيلم التزامه بمجريات العمل الأصلي، ولكنه يمنحه حرارة الإبداع. ومن زاوية أخرى،يمكن القول إنّ هذه الأفلام لم تكن وفيّة لروح الرواية، لأنها ركّزت على المنحى الغرامي بين هيثكليف وكاثرين، اللذين اتحدا بحب روحي أشبه بالحب العذري، أو ما يُشبه عشق روميو وجولييت، ولم تلامس أغلب هذه الأفلام روح الرواية، تلك الروح التي تبحث عن الخلاص والانعتاق، في مجتمع يؤمن بقيود متحجرة. وفي وسط عزلة لا نهائية، تمتد من الغرف المغلقة في داخل البيوت المعتمة، وتنتهي بقسوة الطبيعة وحدّتها.

لقد كانت أميل برونتي تبحث عن الحرية التي تجعل الإنسان يتطهر من رجس أفعاله، وما جنون الحب إلا جزء من هذا البحث عن الحرية، لذلك اكتسب عملها صفة الخلود.

> إميل برونتي هي إحدى ثلاث شقيقات مبدعات كتبن أجمل الأعمال الروائية، وقد عشن في سهوب يوركاشير في بيئة دينية متزمتة. لذا فقد كتبت أميلي روايتها وهي في السابعة والعشرين باسم مستعار (أليس بيل)، لأن النساء غير مسموح لهن بالكتابة آنذاك، حتى قال أحد النقاد عن كاتب الرواية المزعوم: «إنّه ذو مواهب استثنائية، لكنه وغدٌ، وحشيّ ومكتئب».

"مرتفعات وذرنغ" لإميلي برونتي

الفتاة المنعزلة تنظر الى العالم فيرهبها

إبراهيم العريس

هل هي رواية شاعرية أم رواية قوطية حافلة بمشاعر الرعب والموت المخيم في كل مكان؟ عمل رومانسي ام عمل سيكولوجي نبع من مخيلة امرأة تعيش في منطقة نائية، مع اخواتها المستوحدات مثلها، في تلاحم مع الطبيعة، وتفاعل مع احلام اليقظة؟ قصيدة أم قصة؟ عمل ذاتي يروي إخفاقات تلك المرأة وأمنياتها، أم عمل مأخوذ من احداث حقيقية عايشتها المؤلفة؟ رواية كبيرة اسست للأدب الإنكليزي اواسط القرن التاسع عشر، ام عمل ثانوي الأهمية اضفت عليه سماته الكئيبة شهرة سلبية؟ هل كانت رواية «مرتفعات وذرنغ» لإميلي برونتي، هذا أو ذاك؟ ام تراها كانت الأمرين معاً؟

مهما كان من شأن الجواب، فمما لا شك فيه هو ان «مرتفعات وذرنغ» تشغل مكانة اساسية في الأدب الإنكليزي. وهي، بلا ريب، العمل الأشهر بين ما خطته ريش الآنسات اللواتي عرفن باسم «الأخوات برونتي» واللواتي عشن معاً، منعزلات في تلك المنطقة النائية التي اجبرهن على العيش فيها عمل أبيهن. فكان ان انصرفن معا، الى ممارسة الكتابة تعبيراً عن عواطف جياشة مكبوتة، وعن رغبات في الانطلاق وجدت دونها حواجز وعقبات. اميلي كانت الأشهر، بفضل «مرتفعات وذرنغ» تحديداً، لكن شارلوت وآن ضاهتاها شهرة بالطبع... ولقد أسفرت جهودهن معاً، عن عدد من الأعمال التي طبعت الأدب الإنكليزي كله خلال الحقبة الوسطى في القرن التاسع عشر. وظلت تلك الأعمال – او معظمها على الأقل – حية طوال الأزمان التالية وصولاً الى القرن العشرين حيث التقطت السينما اعمال الشقيقات لتحولها افلاماً في تكرار مدهش، وصل ذروته في عام 1979 حين حقق المخرج الفرنسي اندريه تيشينيه فيلماً عن الأخوات جميعاً، كما عن شقيقهن الذي ارتبطن به مع انه عاش عيشاً تجوال وتشرد بعيداً منهن. وحمل الفيلم، الذي قامت ببطولته يومها ايزابيل آدجاني (اميلي) وايزابيل هوبير (آن) وماري فرانس بيزييه (شارلوت) عنوان «الأخوات برونتي». والطريف في ذلك الفيلم كان ظهور الباحث رولان بارت في الفيلم كممثل، حيث قام بدور الكاتب ويليام تاكري.

إذاً، رواية اميلي برونتي «مرتفعات وذرنغ» كانت الأشهر. وهي، بأية حال، الأقوى بين «دزينة» الروايات التي بقيت لنا، حتى اليوم، من نتاجات الشقيقات. ذلك ان هذه الرواية جمعت كل تلك الخصائص التي ميّزت الروايات: التشويق، العواطف، العلاقات الحميمة، الخيبة، العنف، الانتقام، الحضور الطاغي للطبيعة والحب الذي بالكاد يعرف كيف يصل الى نهايته المنطقية. والحال ان هذه السمات التي يمكننا ان ننظر إليها اليوم نظرة ايجابية باعتبارها تشكل السمات العامة التي تطبع الأدب الإنكليزي طوال تلك الحقبة، نظر إليها النقاد في ذلك الحين نظرة سلبية.

إن ما يميز «مرتفعات وذرنغ» على اية حال، يكمن في كونها تكاد وحدها تختصر «المشروع» الروائي لإميلي وشقيقتيها، خير اختصار. إذ انها تحمل مجتمعة كل تلك العناصر التي قد نجدها متفرقة في العديد من الأعمال الأخرى، وتركز على كل عنصر بقوة تجعله يبدو وكأنه العنصر الأساس. وفي هذا الإطار ملفت ان تروى «الحكاية» كلها على لسان شخص غريب عن احداثها رويت له، وها هو هنا يرويها لنا. ومنذ البداية نفهم ان كلمة «وذرنغ» التي تأتي في عنوان الرواية، انما هي كلمة اسكتلندية الأصل، تعني نوعاً من العاصفة... وهذه العاصفة لا تني تدور من حول بيت الشخصية الرئيسة بالمعنيين الحرفي والمجازي، لأن الحدود بينهما تنعدم تماماً، طالما ان العاصفة تكمن اصلاً داخل تلك الشخصية تحركها، تدفعها الى ما تفعل، وتدمرها في الوقت نفسه.

الشخصية الرئيسة في الرواية هي هيثكليف، الطفل الغجري الذي تخلى عنه أبواه، فالتقطه المزارع الثري السيد ايرنشو ليربيه في منزله الريفي كواحد من ابنائه. وبعد وفاة المحسن العجوز هذا، يبدأ هندلي، ابنه بإساءة معاملة هيثكليف إذ انه لم يحبه اصلاً واعتبره دائماً دخيلاً على حياته وحياة أسرته. وفي المقابل تحسن ابنة ايرنشو، كاثرين، معاملة هيثكليف الذي يترعرع هائماً بها راغباً في ان تكون امرأته، لكن كاثرين لا تلقي بالاً لذلك الحب. فالأمر عندها لا يتعدى التعاطف والشفقة. وهي تصرح بذلك ذات يوم غير دارية ان الفتى كان يسمع ما تقول. وتكون النتيجة ان يصاب هيثكليف بالصدمة، امام فتاة احلامه وهي تقول انها ابداً ليست مستعدة للزواج بغجري. وبفعل الصدمة يغادر هيثكليف البيت ليغيب ثلاث سنوات يحقق خلالها ثراء طائلاً، ويعود وقد تبدلت احواله. لكن احوال المزرعة نفسها كانت قد تبدلت في الوقت نفسه. فكاثرين اقترنت بابن الجنرال التافه ادغار لينتون. وأخوها هندلي تزوج بدوره ويبدو انه عقل، إذ ها هو الآن يستقبل هيثكليف استقبالاً طيباً. لكن هيثكليف لا ينخدع هذه المرة. فهو، إذ لا يكف عن الهيام بكاثرين ويشعر انه قد غدر به لا يعيش هنا إلا لكي ينتقم. وكاثرين، التي تكتشف آنئذ انها بدورها تحبه، ولكن ما باليد حيلة، تموت قهراً، في الوقت الذي تضع فيه طفلتها كاثي. اما هيثكليف فتزوج يائساً، ايزابيل، شقيقة ادغار لينتون، لا لكي يحبها، بل لكي يسيء معاملتها ضمن اطار خطته للانتقام لماضيه. وفي الوقت نفسه يسيطر تماماً على هندلي وعلى ابنه هارتون، الذي يذعن له بحيث ينشأ تحت رعايته اشبه بحيوان ضاري. ثم يجتذب كاثي الى دياره ويجبرها على الزواج بابنه الاحمق المعتوه، وقد آلى على نفسه الآن، ان يستولي على املاك آل ليتون. ولكن ابن هيثكليف يموت وتغرم كاثي بهارتون. اما هيثكليف فإنه يشعر ذات لحظة بأن قواه قد خارت وأن الأمل الوحيد الذي بات يداعب خياله انما هو امل الموت بسرعة لكي يلتقي حبيبته كاثرين في العالم الآخر. ثم، إذ يحاول، في لعبة شر اخيرة منه، تدمير منازل آل ليتون وآل ايرنشو، يفشل في محاولته ويموت فيما يرتبط هارتون وكاثي، وارثين العائلات الثلاث معاً.

هذه هي الحكاية التي يحكيها لنا الراوي متوقفاً عند تلك النهاية المركبة. أما لغة القصّ كلها فشاعرية الى ابعد الحدود، وإلى درجة قال معها النقاد ان «مرتفعات وذرنغ» اشبه بأن تكون قصيدة طويلة جداً. اما النقاد الأكثر جدية فقالوا ان «مرتفعات وذرنغ» يجب اعتبارها من النصوص التي مهدت للقصة السيكولوجية، ذلك ان عنصر تحليل الشخصيات يبدو طاغياً، وإن كان تقديم شخصية هيثكليف قد اتسم في احيان كثيرة، بالكثير من السذاجة، وبدت افعاله، احياناً، غير مبررة، وغير متسقة مع مقدماتها. غير أن هذا كله لا يقلل من أهمية هذه الرواية التي كتبتها اميلي برونتي وهي في التاسعة والعشرين من عمرها، وقبل عام واحد من رحيلها شابة في الثلاثين. وإميلي برونتي التي عاشت بين 1818 و1848 كانت الوسطى بين الشقيقات الثلاث، وتصغر الأخ برانويل بعام واحد. وهي لم ترتد المدرسة، مثل شقيقتيها، سوى لأعوام قليلة تلقت بعدها دراسة منزلية، وعاشت شديدة القرب من اختها الكبرى آن. ولئن كانت اميلي قد خلفت لنا، على رغم سنوات عمرها القصيرة، عدداً من النصوص والكتابات الشعرية والقصصية، فإن «مرتفعات وذرنغ» تبقى الأهم بين ما كتبته، بل، كما أسلفنا، الأهم والأشهر بين نتاج الشقيقات برونتي.

من ارشيف جريدة الحياة

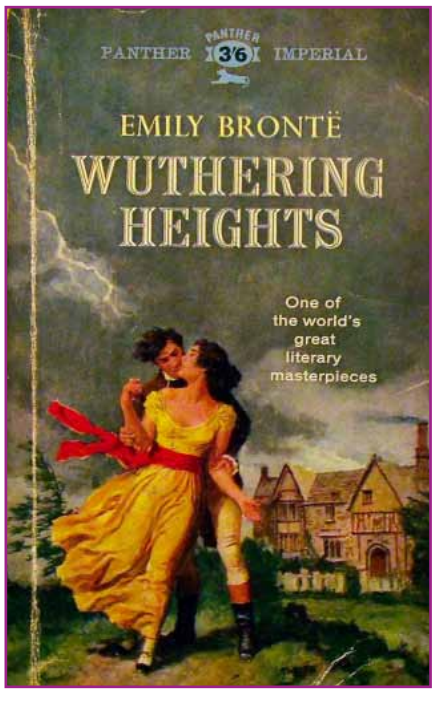

مأساة الأخوات برونتي

حلمي مراد (*)

الأخوات "برونتي" لقب يُطلق على الكاتبات الثلاث الشقيقات: "شارلوت" و"إميلي" و"آن برونتي".. اللاتي اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنساني.. فقد استطاعت صغرى الأخوات الثلاث - وهي آن برونتي - أن تخلد اسمها برواية: "آجنيس جراي".. واشتهرت وسطاهن إميلي بروايتها: "مرتفعات وذرينج"، بينما وضعت كبراهن شارلوت برونتي رواية "جين إير».

ومن عجب أن الشقيقات الثلاث تشابهن في كل شيء تقريبًا!.. تشابهن في نبوغهن الأدبي.. كما تشابهن في هزال أبدانهن، وقصر أعمارهن، بل وفي إصابتهن بنفس المرض، الذي قضى على ثلاثتهن بالتعاقب. وهو مرض السل. فماتت به إميلي في سن الثلاثين (1818 – 1848).. وماتت به آن في سن التاسعة والعشرين (1820 – 1849).. ثم شارلوت في سن التاسعة والثلاثين (1816 – 1855).

كانت أسرة القس باتريك برونتي تقيم في قرية «هاورث»، التي تقوم على رأس سفح مرتفع. في مقاطعة «يوركشاير». يمعن في الارتفاع حتى ليحسبه المرء مشرئبًا ليمس السماء.. وخلف الكنيسة، كانت دار القس تلوح خلال أفواف الضباب والمطر.. كأنها صرح عتيق مهجور، ترين عليه الجهامة والاكتئاب.. فلا تكاد تنبعث منه ضحكة.. وكأنما خلعت المقبرة التي قامت في حديقة الكنيسة، شيئًا من صمتها الساجي، ورهبتها الخاشعة، على راعيها وأسرته وداره.

وفي حجرات تلك الدار، التي حفت بها المقبرة من أمام، والمستنقعات من خلف، ولد للقس ستة أبناء لا يقلون جهامة وغرابة عن هذا الوسط الذي تلقاهم وأحاط بهم.. كانوا خمس بنات وولد، وهم بالترتيب: "ماريا"، "إليزابيث"، "شارلوت"، "برانويل" (وهو الابن الذكر)، ثم "إميلي"، وأخيرًا "آن".. وكانت تفصل بين كل طفل من الأطفال الستة والذي يليه نحو سنة واحدة فقط.. وقدر للأطفال أن يفقدوا أمهم ولما تتجاوز كبراهم الثامنة من عمرها، بينما كانت صغراهم "آن" تحبو في ثاني أعوام حياتها.

وفي داخل الدار كانت الخادمة "تابي" تروي للصغار قصص العائلات الغريبة الأطوار التي تقطن القصور والضياع المتباعدة في تلك المنطقة من مناطق مقاطعة يوركشاير.. كما كان الأب يعني بتعليم صغاره ويتحدث إليهم كما لو كانوا كبارًا.. وعودهم أن يطالعوا الكتب والصحف، ويناقشوه في محتوياتها.. وهكذا شبوا وقد أنمى الاطلاع فيهم ملكة الخيال والتصور.

ألحق الأب برونتي بناته بمدرسة بقرب "برافورد".. وهي المدرسة الرهيبة التي وصفتها شارلوت في قصة جين إير، باسم "لووود".. وبسبب نقص التغذية، وشظف الحياة، ماتت كلا من ماريا وإليزابيث، الابنتين الكبريين.. فعادت شارلوت وإميلي وآن إلى دار القس في هاورث.. وإذ أصبحت شارلوت كبرى أخواتها، فإنها لم تلبث أن نصّبت نفسها أمًا لهم؛ تنظم شئونهم، وترعاهم، وتعلمهم، وتقرأ صحيفة الصباح على أبيها وهو يحتسي قهوته، وتتزعم الأطفال في الإلحاح على تابي الخادمة، كي تروي لهم قصص الجان والعفاريت.

وقد كتب الأب على الأولاد أن يعيشوا في زهد وتقشف، إذ كان من أتباع مذهب "كالفن"، حتى لقد حرموا مذاق اللحم، لأن اللحم يعد من مظاهر الترف.. بل إن اللعب كان ضربًا من الرفاهية لا يليق بهم!.. ومن ثم طبعت حياتهم بالحزن والكآبة والشعور بالمسئولية.. فقد كان حتمًا عليهم أن يتلقوا عن أبيهم دروسًا في الموت والحياة الأخرى.. وهم بعد يمتصون أصابعهم، ويحملقون فيما حولهم، يحاولون التعرف على الحياة الدنيا.

وكيف كان لهم أن يعرفوا هذه الحياة وهم الذين لم يكونوا يلقون من الناس أحدًا سوى أهل بيتهم.. ولا كانت أبصارهم تقع خلال نوافذ حجرة الأطفال بالدار غير على المقبرة الحزينة، والمستنقعات الكئيبة؟!.. وفي الصمت الواجم الذي كان يرين على عالمهم هذا.. كان الموت والشيطان لا يكفان عن الصراع: أولهما يبغي الاستيلاء على أجسادهم، وثانيهما يسعى للظفر بنفوسهم.. وكان الأب القس طرفًا ثالثًا في الصراع.. يمثل الله ويشرف على تنفيذ تعاليمه.

كان الأب برونتي يدعو أولاده إلى مكتبه مرة كل أسبوع، ليختبرهم فيما تكون أختُه. العمة "برانويل". قد لقنتهم من دروس.. وكان الأطفال يقفون أمامه في أدب وخضوع، شأن الصغار أمام أبيهم، فيسألهم بالدور:

. ما الذي يعوز الإنسان إذا ما كان في مثل سنك يا "آن"؟

وتجيب "آن" ذات العينين الزرقاوين، التي لم تتجاوز الرابعة:

. التجربة والخبرة يا أبت!

. وما الذي ينبغي أن أفعله بأخيك برانويل إذا ما كان مشاكسًا يا إميلي؟

وتجيب إميلي، التي كانت في الخامسة من عمرها:

. تجادله بالتي هي أحسن، فإذا لم يرعوِ لصوت العقل.. تضربه بالسوط!

وتثلج الإجابتان صدره، فهكذا ينبغي أن تكون أخلاق المتطهرين في رأيه.. ولا يلبث أن يلتفت إلى شارلوت التي لم تتجاوز الثامنة من عمرها، والتي لم تؤت قبسًا من الجمال، بل كانت ذات فم واسع معوج، وعينين حالمتين، فيسألها:

. ما هو أفضل كتاب في الدنيا؟

. التوراة.. والطبيعة يا أبت!

ويتحول الأب إلى ماريا كبرى البنات، فيسألها:

خبريني يا ابنتي، ما أفضل الطرق للإفادة من الوقت؟

وتجيب ابنة الربيع العاشر من العمر:

. أعتقد أن خير طريقة للإفادة من الوقت.. هي في تكريسه للاستعداد للحياة الأخرى!

ويحين دور برانويل. الابن الذي عقد عليه الأب برونتي آماله. وكان إذ ذاك صبيًا مشاكسًا، شرسًا، في السابعة من عمره. فيسأله:

. ما أفضل الوسائل لمعرفة الفوارق بين ذكاء الرجال ومدارك النساء؟

ويقطب برانويل، ثم يقول:

. مراعاة الفارق بينهم في الجسم يا سيدي!

فيبهت مستر برونتي لهذا الجواب.

وينتهي الاختبار، فيسمح الأب لأولاده الستة بأن يخرجوا للنزهة مع كلبهم، مكافأة لهم، فينطلقوا في الأرض التي تتخللها المستنقعات.. وفي تلك السويعات القلائل كانت يد خفية عجيبة تربط بين الأطفال الذين كانوا يعيشون في عزلة.. وكأنما غفل عنهم البشر، وبين المنطقة المعشوشبة التي كانت تبدو وكأنما نبذها الله وأهملها.. وما أشد ما كان الشبه بين الفريقين.. الأولاد اليتامى الذين فقدوا الأم ورعايتها.. والمنطقة المهملة اليتيمة التي فقدت رعاية المصلح!

كان لا بد إذن لمن يقيمون في دار قس هاورث أن يلتمسوا الزمالة والحياة الاجتماعية في الخيال.. فقل مَن كان ينشد زمالتهم أو ينفذ إلى حياتهم.. ومن ثم فإن التاريخ لم يعرف إخوة أوتوا من الخيال المشحوذ المرهف، ما أوتيه أبناء القس برونتي.. البنات الثلاث والولد.

فقد راحوا يسودون المذكرات بمغامرات خيالية، واجتماعات موهومة، وأقاصيص تصور نفوسهم في آلاف من مرايا الفكر والوهم.. وكانوا بهذا يخلقون لأنفسهم عالمًا خاصًا بهم، عزز الوشائج بينهم.. وتقول شارلوت عن هذه الحقبة: كنا نعتمد كل الاعتماد على أنفسنا، ويركن كل منا إلى الآخر، وإلى الكتب، وإلى الدروس، نلتمس فيها ما يملأ حياتنا من لهو وشغل.

وهي تذكر أن محاولة الكتابة الأدبية كانت أشد ما يستأثر بشغفهم، وما يبعث السرور في نفوسهم.. فمنذ صباهن اتجهت ميول الشقيقات الثلاث نحو الأدب.. بينما مال شقيقهن الوحيد برانويل إلى الرسم.. لكنه مُني بفشل ذريع في جميع الميادين، فأدمن الخمر وصار مجلبة للخجل والعار.. وبعد أن يئسن الأخوات من أن يصبح مصدر دخل للأسرة، عمدن إلى البحث عن أعمال كمربيات لدى الأسر الثرية، وهي المهنة الوحيدة الشريفة للعوانس الفقيرات في ذلك العصر.

بعدها رحلت شارلوت وإميلي إلى "بروكسل" حيث اشتغلتا زمنًا بالتدريس، لكن صحة إميلي بدأت في التدهور، واشتد بها الحنين إلى أحراش يوركشاير، فعادتا إلى وطنهما.. وهناك بدأتا تمارسان مع شقيقتهما الثالثة كتابة القصة ونظم الشعر، فنشرن ديوانهن الأول بتوقيعات مستعارة لثلاثة أشقاء وهميين. من الرجال. بأسماء: "كيور، وإيليس، وأكتون بيل».

وبرغم فشل الديوان من حيث الرواج ولفت أنظار النقاد، فإن مجرد رؤية الشقيقات الثلاث لإنتاجهن مطبوعًا على الورق، كان كافيًا لإشعال حماسهن من أجل تحقيق أحلامهن الأدبية الواسعة.. فلم يكن لهن من أنيس سوى القلم والورق.. ولم يجدن ما يملأن به فراغ حياتهن منذ الصغر سوى الأدب ومحاولة قرض الشعر وتأليف القصص، التي كن ينتزعنها من صميم حياتهن ومن أحلام اليقظة.. التي كن يعوضن بها ما حرمن منه في حياتهن الواقعية.

لكن رغم ذلك لم يكن أحد من آل برونتي سعيدًا.. فكأنما خلقوا من طينة غير طينة البشر ودنياهم.. فالواقع أن فواجع أسرة برونتي لم تقف عند حد؛ فلقد مات برانويل ولم يكن قد تجاوز الحادية والثلاثين من عمره.. وكان قد رحل إلى لندن، ليبرز في فن الرسم، فتردى في مبازل الفنانين، ثم عمل مدرسًا لأبناء رجل موسر، ولكنه طرد من عمله حين ظهر أنه كان يدبر خطة للفرار مع أم تلاميذه!.. وانحدرت به الحال حتى عمل كمحصل في أحد الخطوط الحديدية، إلى أن اكتشف المفتش أنه كان يرسم في دفاتره صور "فينوس" بدلاً من أن يسجل الأرقام، وكان يثبت قصائد من الشعر في مكان الحسابات.. وعندما هوت مكانة برانويل إلى الحضيض، عكف على ترجمة "الأوديسة" إلى شعر إنجليزي راق، ولكنه أفرط في الشراب، حتى قضى نحبه مخمورًا.

بعد وفاة برانويل نشرت إميلي روايتها الوحيدة مرتفعات وذرينج.. وبرغم أن الرواية نشرت في البداية تحت اسم مستعار، فقد رجح القراء أن المؤلف امرأة، لكنهم تخيلوها امرأة مغامرة عركت الحياة الصاخبة، وإلا لما استطاعت تصوير العواطف بهذا العنف والجموح والقوة الدافقة.. وما درى الواهمون أن المؤلفة لم تعش إلا حياة الراهبات الناسكات!

ولم يمضي عام على نشر الرواية حتى بدأت إميلي تسعل.. لكنها أبت الاستكانة للعلاج.. بل ورفضت زيارة الطبيب.. فسارت نحو النهاية بخطى حثيثة..وحتى في يوم وفاتها ذاته.. ارتدت ثيابها، وهبطت من غرفتها وجلست تكتب كالعادة.. فماتت واقفة أو على خشبة المسرح كما يشتهي الممثلون.

وما هي إلا خمس شهور، حتى أنشب السل مخالبه في رئتي "آن". صغرى الأخوات. وحملتها شارلوت إلى البحر عسى أن تفيد من نسيمه، ولكن "آن" أدركت أن النهاية قد دنت، فشدت على يد شارلوت وهي تهمس: تشجعي!.. ولم يحن أصيل ذلك اليوم حتى ماتت.

على أن شارلوت قد فاقت أختيها في تحمل العناء والآلام والأسى في هذه الحياة.. لقد عاشت أربعين عامًا في ظلام الحزن والشجن والحرمان العاطفي.. وكان الحب الوحيد الذي خفق به قلبها، حبًا مقضيًا عليه بالفشل من بدايته.. وأخلدت بعد يأسها منه إلى العزلة، وليس من أنيس لها. بعد موت أختيها وأخيها. سوى قلمها.

فبعد فشلها في أن تصبح معلمة، قبلت العمل كمربية للأطفال لكنها سرعان ما هجرت عملها في استياء، لتلتحق بمدرسة داخلية يديرها زوجان لتعلم كيفية إدارة المدارس، لكنها تعلقت بمعلمها برغم أنه كان على النقيض منها تمامًا في السن والميول والطباع، كما كان أبًا لخمسة أبناء، ولكنه كان أول رجل مرهف الذكاء صادفته، كما كانت تقول.

إلا أنه في المقابل لم يكن يعي ما يساورها، ولم يفطن إلى وجدها ولم يشعر بحبها.. وعندما عرف لم يهتم به كما تمنت.. فما كان منها إلا أن حزمت أمتعتها ورحلت عائدة إلى هاورث، وهناك أمسكت بالقلم لتكتب له أروع الرسائل وأحفلها بالعواطف.. رسائل تتلظى بالنيران المتأججة في فؤادها.

لكنها للأسف لم تتلق ردًا منه.. ولم يحفل برسائلها كما هو متوقع.. فلم تجد أمامها لكي تنقذ نفسها من الجنون إلا أن تصهر عذابها وتصبه في قالب رواية.. رواية للأجيال، وللخلود.. هي رواية جين إير.. التي أحدثت ضجة هائلة ولقيت رواجًا عظيمًا وقت صدورها؛ كونها خرقت التقاليد التي جرى عليها المؤلفون في الروايات الغرامية في ذلك الزمن.. إذ جعلت بطلتها مربية ليس فيها ما يبهر الرجال، ولكنها تقع في هوى رجل متزوج من امرأة معتوهة مخبولة. وقد كتبت شارلوت بعد ذلك روايتين هما: "شيرلي" التي تمثل صفحة من حياتها عندما كانت تعمل مربية في لندن، و "فاليت" التي استمدتها من ذكريات حياتها في بلجيكا.

وقبل أن تُكمل شارلوت الأربعين بقليل تطايرت الأنباء بأن قسًا من أبناء الجيرة قد صارحها بهواه، وتقدم للزواج منها، وكانت هذه هي الفرحة الوحيدة في حياتها، ولكنها لم تدم سوى شهورًا معدودة، فما لبثت أن مرضت ولازمت الفراش وهي بعد حامل في جنينها، وفي يوم

31 مارس عام 1855 توفيت شارلوت، مع ابنها الذي لم يولد بعد، في سن التاسعة والثلاثين.

(×)مُقتطع من مقدمة ترجمة الأستاذ حلمي مراد لرواية مرتفعات وذرينج لإميلي برونتي

المؤامرة على إيميلي برونتي ما زالت مستمرة

ندى حطيط

لم تخطّ أنامل الروائيّة الإنجليزيّة إيميلي برونتي في حياتها القصيرة (1818 - 1848) سوى رواية واحدة وبضع قصائد، لكنّها كانت كافية لتحجز لها مكانة لا تكاد تدانى في سجل كلاسيكيات الأدب الإنجليزي التي أنتجتها نساء العصر الفيكتوري، إلى جوار (شقيقتها الكبرى) شارلوت برونتي (1816 - 1855)، وجين أوستن (1775 - 1817)، حتى قيل أن يتيمتها (مرتفعات وذيرنغ - نشرت عام 1847) «أهم رواية في القرن العشرين من روايات القرن التاسع عشر»، على حد تعبير جون سائرلاند، في دليل «لونغمان» للأدب الفيكتوري. ويعدّها مؤرخو الثقافة واحدة من أهم الوثائق الأدبيّة لفهم تحولات عيش الطبقة البرجوازيّة الإنجليزيّة في أوقات مفصليّة زمن الإمبراطوريّة، قبل أفولها.

وبالفعل، فإن «مرتفعات وذيرنغ» طبعت مرات كثيرة يصعب حصرها، بينما أصبحت قصائد شعرها المتوهجة معالم في الثقافة الشعبيّة الإنجليزيّة، لا سيما تلك التي مطلعها «لا روح جبانة عندي»، فتجدها مدونة على أكواب القهوة والقلائد وعلاّقات المفاتيح التي تروّج للسيّاح. وكعادة «أمّة البقّالين»، كما الوصف الشهير عن الإنجليز، في المتاجرة بكل شيء، فقد نشأت مع الأيام صناعة سياحة متكاملة، محورها الأخوات الأديبات الثلاث: شارلوت وإيميلي وآن، اللواتي تحول بيتهن في قرية ثرونتون (من أعمال مقاطعة يورك)، المعروف بـ«هاورث بارسوناج»، إلى مزار تشدّ إليه الرحال، بينما تتعدد عنهن المقالات والكتب والأفلام السينمائية المستوحاة من رواياتهن، إضافة إلى «دراسات برونتي»، المجلّة الفصليّة الأكاديميّة المتخصصة بالأبحاث في ما يتعلق بأدبهن، وتصدرها «جمعيّة برونتي» بالتعاون مع «روتليغ»، دار النشر البريطانيّة المرموقة، دون توقف منذ واحد وأربعين عاماً.

لكن إيميلي، مع ذلك، لم تهنأ بشيء من هذا الوهج المبهر خلال حياتها، حيث إن روايتها الفريدة التي نشرت قبل سنة واحدة من غيابها المبكر بمرض السل لقيت عاصفة انتقادات سلبية في الصحافة الأدبيّة وقتها، ولا بد أن ذلك تسبب في حزنها وهي تمضي إلى مصيرها، إذ وُجدت نسخ من خمس مقالات نقد مرير ضمن أوراقها التي كانت تكتب فيها وقت رحيلها عن العالم. ومقارنة بمجايلاتها، فهي لم تترك وثائق أو مراسلات كثيرة يمكن الرجوع إليها للتعرف إلى دقائق تلك الشخصية التي أبدعت «المرتفعات»، لا سيما أن إيميلي (وشقيقتها الصغرى آن كذلك) نشرتا روايتهما تحت أسماء أدبية ذكورية مستعارة، الأخوين إيليس وأكتون بيل، ولذا فقد اقتصر كاتبو سيرتها على مصدر واحد احتكر كل السرديّة عنها: شارلوت برونتي.

شارلوت الشقيقة الكبرى لإيميلي كانت أديبة مبرزة أيضاً وشاعرة مهمة، وتعد روايتها «جين إير» (1847) ضمن الأسفار الكلاسيكية للأدب الإنجليزي، وقد عاشت بعد غياب أختيها سبع سنوات، كتبت فيهما مقدمتين لطبعات لاحقة من «مرتفعات وذيرنغ»، وسيرة موجزة عن أختيها الراحلتين (إذ خطف السل الشقيقة الصغرى آن بعد أقل من ستة أشهر على غياب إيميلي)، إضافة إلى كوم من الرسائل والمذكرات والملاحظات ومقابلات مكثفة مع إليزابيث غاسكل، التي كتبت السيرة (الرسمية) لشارلوت (حياة شارلوت برونتي 1857 –).

الصورة التي رسمتها شارلوت لإيميلي أظهرتها كما لو أنها مادة أدبية مبهرة، لكنها «تفتقد الخبرة الواقعيّة للتعامل مع الحياة»، و«ليست لديها حكمة إدارة وجودها في هذا العالم»، منطوية على نفسها ومنعزلة وشديدة العناد، تقسو على كلبها، ولا تكاد تغادر المنزل، بل وربما ذات ميول انتحاريّة، حيث إنها رفضت فيما يبدو تناول الدواء وقت إصابتها بالسل القاتل. ويقول مؤرخو الثقافة إن شارلوت ربما قصدت إشارة نوع من التعاطف مع إيميلي في ذهن القرّاء الذين قد تكون أفسدتهم المراجعات القاسية عن «مرتفعات وذيرنغ» في صحف تلك الفترة التي لم تكن رحيمة أبداً، إذ كتبت مجلة غراهام (1848) مثلاً: «إن هنالك قولاً مأثوراً بأن من يتناول الجبن المحمص ليلاً يحلم بلوسفاير (أي الشيطان)، ولا بدّ أن كاتب رواية (مرتفعات وذيرنغ) قد أسرف في تناول الجبن المحمص، وإلا كيف تفسر إذن تمكّن إنسان من الشروع في كتابة نص كهذا، ثم لا يقدم على الانتحار بعد إنجازه بعض الفصول». ونصحت مجلّة أخرى (بريتانيا) قراءها بأن «يقرأوا رواية (جان إير)، وأن يحرقوا رواية (مرتفعات وذيرنغ)».

إذن، كانت هذه الرواية بمثابة صدمة للعقل الفيكتوري الشديد الرومانسية الذي لم يكن ليستوعب جرأة غير مألوفة من قلم روائية امرأة، بثت في روايتها شحنة غير معتادة من الشغف المتدفق المختلط بشخصيّات ملتبسة ومرتبكة، قادرة في الوقت ذاته على ارتكاب آثام سيكولوجيّة شديدة الإظلام، وتكاد لا تجد في النصّ كلّه شخصيّة واحدة تتعاطف معها لدرجة أنك تمقت حتى الرّواة المتعددين الذين أوكلت إليهم الروائيّة مهمة سرد الأحداث.

وفي غياب المصادر الأخرى، احتكرت الصورة كما رسمتها شارلوت عن إيميلي المخيال العام، وتبعها نقادٌ أدبيون وكاتبو سير من الذين انجرفوا بعيداً في تكريس أسطورة «الفتاة غريبة الأطوار في العائلة الغريبة الأطوار»، دون أن يحكموا عقولهم، بل وانتهى بعضهم إلى مقارنة جوانب من سلوك هذه الصورة المتخيّلة عنها بأعراض أمراض سيكولوجيّة وجسديّة مختلفة، وتوظيف تلك المقارنات لتقديم تفسيرات لنتاجها الأدبي (الحاد)، ولم يوفروا حتى اتهامها بأنها كانت تعاني من تلبّس الأشباح وزيارات الأرواح، دون أن يقدّم أي منهم دليل أو حتى قراءة موضوعيّة لأسباب ذهابهم في هذا الاتجاه.

مع ذلك، فإن شذرات من سيرة إيميلي بقيت رغم كل شيء تناقض تلك الصورة الموغلة في سلبيتها، لا سيما لجهة ما توارد عنها من كونها كانت إلى جانب موهبتها الأدبية أفضل من يصنع الخبز المنزلي في كل القرية التي نشأت فيها، كما أنها قضت عدة أشهر رفقة شارلوت في رحلة إلى بلجيكا عام 1842، وأبهرت مدرستها للغة الفرنسية هناك بقدرتها على تعلم اللغة بسرعة فائقة.

كما أن هناك إشارات إلى أن مرض السل قضى على شقيقتين أخريين لإيميلي في صغرها، وأنها اعتقدت حينها أن الدواء الذي أعطي لهما سرع بموتهما، الأمر الذي قد يبرر امتناعها عن تناول الدواء ذاته. الشّقوق في هذه السرديّة المضللّة عن شخصية إيميلي ما لبثت أن توسعت في السنوات الأخيرة، بعدما تصدى نقاد أدبيون معاصرون ومؤرخو ثقافة لمهمة تفكيك الرواية الشارلوتية – إذا جاز التعبير – عن صاحبة «مرتفعات وذيرنغ».

لوكاستا ميلر، مثلاً، اعتبرت في كتابها «الأسطورة برونتي» (2002) أن سردية شارلوت عن إيميلي لم تك سوى جزء من استراتيجيتها المحكمة لامتلاك الصورة الجمعيّة عن الأخوات برونتي، بحيث تبقى هي دائماً قلب تلك الصورة ومحورها، ولو على حساب أختيها – غريبتي الأطوار عديمتي الخبرة رغم خامتهما الأدبية المدهشة، كما تصفهما. وقد بنت ميلر هذه النظريّة المضادة من خلال استقراء نزعة استثنائية لحبّ الشهرة عند شارلوت في نص رسالة قديمة كانت قد أرسلتها للشاعر روبرت ساوثي، تعود لعام 1836، أي قبيل نشر «مرتفعات وذيرنغ» بأكثر من عقد، بينما اعتبر خبراء معاصرون في الطب أن تشخيصات القائمة الطويلة من الأمراض التي ألصقها الكتبة المتلاحقون بإيميلي تفتقر إلى الدقّة العلميّة، ونبّهوا إلى أنه لا تتوفر لأي أحد حتى الآن معلومات كافية للجزم بأي شيء في هذا الخصوص.

وهكذا، يمكن القول إنه بعد مرور 200 عام على مولدها، فإن ملامح جديدة عن إيميلي برونتي، تلك الرّوح الشجاعة المتحديّة للمألوف والمقبول، قد بدأت بالتكوّن، وبالنقيض من الصورة المتصدعة التي أطلقتها شارلوت وأتباعها، لكن تلك الملامح ستأخذ بالتأكيد بعض الوقت قبل أن تستعاد إيميلي من أنياب هذه المؤامرة المستمرة، وكمّ الخرافات التي تكرست عنها لعقود طويلة، فتداخلت مع المنتج السياحي عن تلك «العائلة الموهوبة غريبة الأطوار» التي أنتجت روائع الأدب الفيكتوري الخالدة. قد تكون هذه أفضل مناسبة لإعادة قراءة «مرتفعات وذيرنغ» اليوم بعيون جديدة تحررت من قبضة تجار الأساطير.

عن الشرق الاوسط

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام
والثقافة والفنون

العالم في عين إميلي برونتي

ترجمة وتقديم: د. ماجد الحيدر

شاعرة وروائية إنكليزية. ربما كانت إميلي أعظم الأخوات برونتي الثلاث (شارلوت وجين وآن) لكننا لا نعرف عن حياتها إلا النزر اليسير، إذ كانت في الغالب متحفظة كتوم ولم تترك مراسلات ذات أهمية، كما أن روايتها الوحيدة "مرتفعات وذرنغ" لا تلقي إلا مزيدا من الغموض على حياتها الروحية.

كان والـد الأخـوات برونتـي رجل ديـن أيرلنديا تمتع بعمـر ناهز الخامسـة والثمانـين غير أنه فقـد زوجته وجميـع أبنائه في أعمار مبكـرة. بعد رحيل الأم تركت الشقيقات الثـلاث وأخوهن "باتريك" ليمارسوا حياة طليقة في منطقة المرتفعـات الجرداء العائدة للأبرشية التي عمـل فيها الأب. تلقت إميلـي – كشأن شقيقاتها- تعليمـا مدرسيا تخللتـه دراسة خارجية غـير منتظمة ورحلـة دراسية قصيرة الى بلجيـكا استعدادا لتجربة حظهـن في ممارسـة التعليـم أو تربية الأطفـال بشكل متقطـع. في عـام 1845 نشـرت الشقيقـات مجموعـة شعرية مشتركة بأسمـاء مستعارة ولم يبع منها سوى نسختـين. غير أنهن فاجأن الأوسـاط الأدبية بنشرهن ثـلاث روايـات عـام 1847: "جـين آيـر" لشارلـوت، "مرتفعات وذرنغ" لإميلي، و "أغنز غراي" لآن. ورغم أن روايـة شارلوت لاقت نجاحا فوريا هائلا فإن النقاد لم يستقبلـوا روايـة إميلي استقبـالا حسنا فهاجموها باعتبارهـا شديـدة الوحشيـة والبهيميـة وخرقاء في بنائهـا. غير أن الآراء اللاحقة عدتهـا واحدة من أعظم الروايـات في تاريـخ الأدب الإنكليـزي. تتميـز هـذه الرواية عن معاصراتهـا ببنائها غير العادي وأسلوبها الرومانسي والدرامي وغياب أية تعليقات من المؤلف. وتختلـف إميلي عـن شقيقتيها بعـدم توظيف تفاصيل حياتهـا الخاصـة أو المصادفـات المبالـغ فيهـا وكـون مشاهـد الأحداث محدودة وقلة عـدد الشخصيات التي تتحـرك بدوافع عميقـة وبدائية من الحـب والكراهية حتى تصل الى نهاياتها المنطقية.

وأميلـي برونتـي تميـل في شعرهـا الى الغموض والصوفيـة والتسـاؤلات العميقـة عن طبيعـة الحياة ومغزاها.

عانـت إميلـي بعيـد نشـر رواتهـا تدهـورا سريعا في صحتهـا وأصبحـت تقاسـي آلامـا شديـدة وصعوبـة في التنفـس وما لبثت أن فارقت الحيـاة بمرض السل أواخر عام 1848.

«1»

أواجَه بالتعنيف
أواجَه بالتعنيف كثيراً
لكني أعود دوما
الى تلك المشاعر الأولى التي ولدت معي
وأهجر السعي المحموم للثروة والمعرفة
نحو أحلام عقيمة بأشياء لا يمكن تحقيقها
اليوم لن أقصد الأقاليم الظليلة
فاتساعها الموهن يفاقم الحزن
والرؤى التي تنهض جحفلاً بعد جحفلٍ
تدني الى حد عجيب
هذا العالم الموهوم

سأمشي ولكن ليس فوق آثار الخطى البطولية
ولا مسالك الخلق النبيل
ولا بين الأوجه النصف الواضحة
تلك الأشكال الغائمة لتاريخ غابر قديم
سأمشي الى حيث تقودني طبيعتي أنا
وإنها لتدفعني لاختيار دليل آخر
الى حيث ترتع القطعان الرمادية
في الوديان الصغيرة التي يغمرها السرخس
الى حيث تنفخ الريح الجموح بوجه الجبل
هذه الجبال الوحيدة
ماذا بوسعها أن تكشف ؟
مجداً أعظم وحزناً أشد مما في وسعي إحصاؤه
والأرض التي توقظ الإحساس بقلب إنسان واحد
قادرة أن تكون مرتكزا
بين عالمين من جنةٍ ونار

«2»

الذكرى
والآن إذ يلف الثرى
جسدك البارد
ويرتفع الثلج من فوقك أكواما
وإذ أنت بعيد بعيد
في الجدث البارد الكئيب
هل نسيت أن أحبك.. يا حبي الوحيد
وقد فرقتنا أخيرا
أمواج الزمن التي تفرق كل شيء ؟
والآن وأنا وحيدة
هل كفت أفكاري عن التحليق فوق الجبال
وفوق ذاك الشاطئ الشمالي
وإرخاء جناحيها حيث الخلنج
وأوراق السرخس التي تغطي
القلب النبيل الى أبد الدهر ؟
بارد أنت في الثرى.
عشرة أشتية موحشة مرت
فوق هذه التلال السمراء
تلتها خمس أخريات
واستحالت كلها الى ربيع.
مخلص حقا هو القلب الذي يتذكر
بعد هكذا أعوام من الشقاء والتحول.
أيا حب الشبيبة العذب
سامحني إن نسيتك يوما
إذ يجرفني موج الحياة
إن آمالا أخرى تحيط بي
آمالا ورغائب غامضات
لكنها لن تستطيع إيذاءك !
لم يضئ سمائي نور جديد
لم يشرق من أجلي صباح ثان
نعيم حياتي كله من حياتك العزيزة جاءني
ونعيم حياتي كله يرقد الآن معك.
ولكن حين مضت أيام الأحلام الذهبية
ولم يعد اليأس نفسه قادرا على التدمير
تعلمت ساعتها كيف أن الوجود
قد يكون عزيزا قويا
دون عون من السرور.
عندها كبحت دموع العواطف التي لا تجدي
وفطمت روحي الفتية من حنيني إليك
وأنكرت في قسوة
حرقتها لنزول الحفرة التي
هي ملكي وأكثر من ملكي
لكني لا أجرؤ على تركها للتواني
لا أجرؤ على الانغماس
في ألم الذكريات الشجي
إذ كيف لي وقد شربت حد الثمالة
من كأس الألم السماوي ذاك
أن أسعى وراء العالم الأجوف من جديد ؟

«3»

الرواقي القديم
الثروة مزدراة بعيني
والحب أراه بعين الاستخفاف
وما شهوة المجد غير أضغاث أحلام
زالت مع الصباح
وإذا صليت فما من دعاء على شفاهي إلا:
«ذر القلب الذي أحمل بين الضلوع
وامنحني الحرية»
نعم، وإذ تدنو أيامي المسرعات لغايتها
فهذا كل ما أرجو:
روحاً طليقا في الموت والحياة
وشجاعة على الاحتمال.